معالم تربوية في فكر مالك بن نبي

الباحث لطفي علواني
دكتوراه في علوم القرآن وديدكتيك التربية الإسلامية
جامعة محمد الأول، وجدة
المغرب

ملخص البحث:

يعتبر المفكر "مالك بن نبي" التربية الدعامة الأساس في بناء الإنسان الحضاري؛ لذلك فهو لا يقزم دورها في تلقين المعارف فحسب، بل هي عملية تنشئة متكاملة لشخصية الإنسان في جميع جوانبه: الفكرية، الروحية، الأخلاقية والجمالية، الاجتماعية، والمهنية...؛ فالتربية في فكره، هي وسيلة وليست غاية؛ وسيلة لبناء الإنسان الفعال، والمنتج، القادر على مواجهة التحديات، والإسهام في نهضة الأمة، وإخراجها من خندق الأفول الحضاري الذي يكبل تقدمها.

وقد حاولت من خلال هذا البحث استنطاق فكر ابن نبي واستقراء فلسفته التربوية من خلال كتاباته، لاستجلاء أسس ومعالم مشروعه النهضوي. وقد اعتمدت في ذلك على المنهج الاستقرائي في تتبع كتاباته، والمنهج التحليلي عند الاقتضاء.

ومما خلص إليه البحث، أن مشروع ابن نبي النهضوي هو مشروع تربوي، يسعى إلى بناء حضارة إسلامية أصيلة ومتجددة؛ ويرتكز في فلسفته على ثلاثة عناصر يراها كفيلة ببعث الروح في هذه الأمة وتحريرها من الجمود الذي تقبع فيه؛ أولها بناء الإنسان المتحرر من عقدة النقص، فهو حامل الرسالة والقيم، ومحرك الوسائل ومستخدم الإمكانيات؛ وثانيها، بناء مجتمع متماسك معتز بقيمه ومبادئه الإسلامية؛ وثالثها، الفكرة الدينية التي يعتبرها ابن نبي الوقود المحرك للبناء الحضاري، كما كانت قوة محركة للحضارية الإسلامية؛ فهي البوصلة الموجهة في تكوين الفرد الحيوي الإيجابي والمجتمع المتماسك الموحد.

الكلمات المفاتيح: التربية – بناء الإنسان– البناء الحضاري – الفكرة الدينية – المنطق العملي

The thinker Malek Bennabi considers education the basic pillar in building a civilized human being. Therefore, it not only dwarfs its role in imparting knowledge, but rather it is an integrated process of upbringing the human personality in all its aspects: intellectual, spiritual, moral, aesthetic, social, and professional...; Education, in his mind, is a means, not an end. A means of building an effective and productive human being capable of facing challenges, contributing to the renaissance of the nation, and pulling it out of the trench of civilizational decline that hinders its progress.

Through this research, I have tried to interrogate Ibn Nabi's thought and extrapolate his educational philosophy through his writings, to clarify the foundations and features of his renaissance project. In doing so, I relied on the inductive approach in tracking his writings, and the analytical approach when necessary.

The research concluded that the Ibn Nabi Al-Nahdawi project is an educational project that seeks to build an authentic and renewed Islamic civilization. His philosophy is based on three elements that he believes are capable of reviving the spirit in this nation and liberating it from the stagnation in which it is trapped. The first is to build a human being freed from the inferiority complex, as he is the bearer of the message and values, the driver of means and the user of capabilities. Secondly, building a cohesive society that is proud of its Islamic values and principles. Third, the religious idea that Ibn Nabi considered the driving force for building civilization, just as it was a driving force for Islamic civilization. It is the guiding compass in the formation of the positive, vital individual and a cohesive, unified society.

Keywords: education - human building - Civilizational construction - religious idea - practical logic

مقدمة:

قد يتبادر إلى الأذهان قصور كتابات المفكر "مالك بن نبي" في المجال التربوي، باعتباره لم يخصص أيّ كتاب من ضمن مؤلفاته في معالجة موضوع التربية، وفق ما هو متعارف عليه في المقاربات الأكاديمية عند المتخصصين في المجال التربوي.

فإذا كان المألوف بين هؤلاء حصر التربية في الطفل داخل المؤسسات التعليمية، وعبر تصريف المنهاج الدراسي، فإن مالك بن نبي خرج بفكره عن المعتاد؛ حيث أن كل كتاباته تمحورت حول فكرة الحضارة وصياغة شروط النهضة، التي لن نستطيع إليها سبيلا – حسب رأيه– إلا بصناعة وبناء الإنسان، الذي سيسهم في عملية الإصلاح وإعادة البناء الحضاري. وهذا المبتغى لا يمكن تحقيقه خارج إطار التربية ودورها في إعادة تأهيل الإنسان النهضوي.

هذه الرؤى والتصورات؛ هي البوصلة الموجهة والمؤطرة لهذا البحث، الذي يهدف إلى استنطاق فكر"مالك بن نبي"، واستقراء فلسفته ومنهجه التربوي؛ من خلال تسليط الضوء على المعالم التربوية التي تضمنها مشروعه الإصلاحي، الذي ربط فيه التغيير بالثقافة، والثقافة بالتربية، والتربية بالحضارة، باعتبار التربية ثقافة لصناعة الانسان، وجعله البوصلة الأساس في عملية التغيير، والسعي بمشروعه النهضوي لإقامة حضارة أمة أصيلة.

- فما هو مفهوم التربية عند مالك بن نبي؟
- ما هي غاياتها وأهدافها؟
- ما هي المجالات التربوية المستهدفة لصناعة الإنسان النهضوي؟
- وما هي أسس النظرية التربوية في فكر ابن نبي؟

المطلب الأول: مفهوم التربية عند مالك بن نبي

إن التربية المستهدفة عند ابن نبي ليس المقصود بها معناها المعهود الذي يربطها بالمتعلم تنشئة ورعاية، ولا بالتعليم، من حيث المؤسسات والمناهج والبرامج. إنما صاغ لها مفهوما أكثر شمولية باعتبارها مشروعا متكاملا لتأهيل الإنسان، وإعداده للمساهمة في بناء المجتمع التاريخي المتحضر.

فمن خلال استقراء مجمل كتبه، فهو يعرفها تارة بأنها "منهج يهدي سير مجتمع ما...، وفق قواعد عامة تستسقى من علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس"[1]، وتارة أخرى يعرفها بأنها الوسيلة، ومجالها الأفراد وعلاقتهم ببعضهم البعض، حيث يقول" ليست التربية مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. وليست هي من إنتاج المتعالمين، وبحار العلوم، الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم، دون أن يلموا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع، خيرا أم شرا. أو أولئك الذين يعرفون جميع المبادئ والتعاليم التي جاءت في الإسلام، دون أن يستطيعوا تطبيق مبدأ أو تعليم واحد لتغيير أنفسهم، أو تغيير بيئتهم.....، بل هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموع القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ"[2].

إن طبيعة التربية عند مالك بن نبي تجمع بين الفرد والمجتمع، وتهدف إلى تركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد؛ وهذا ما يبرز التداخل عنده بين الثقافة والتربية، من خلال قوله "أن من أولويات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب

أن نحددها عاملا تاريخيا لكي نفهمها، ثم نظاما تربويا تطبيقيا لنشرها بين طبقات المجتمع"[3]. فالثقافة ترسم ملامح التربية، باعتبارها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه...ليشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"[4]. أما التربية فهي الوسيلة التي تنمي الثقافة من خلال ترسيخ منظومة القيم في السلوك الفردي والاجتماعي، لذلك يحدد ابن نبي الثقافة في شقها التربوي على أنها "عملية تثقيف متواصلة، وتتمثل عملية التثقيف هذه في تلك العملية النفسية التي – في أولى مهامها – تركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد وتأهيله بهدف تحقيق مشروع التغيير"[5].

ومن خلال ما ذكر سلفا، يتبين أن الرؤية التربوية عند ابن نبي هي مشروع متكامل تشترك فيه كل المؤسسات الاجتماعية، وهو تصور ينسجم مع النظرة الحديثة للتربية، بوصفها عملية ديناميكية تتطور بتطور المجتمع، متجاوزة حدود فضاء المؤسسات التعليمية ونظامها الهرمي، لتمتد إلى مجالات الحياة كلها وجميع فئات المجتمع، من حيث قابليتها للتغيير والتطور والاستمرارية، ومترجمة في ذات السياق غايات المجتمع وطموحاته. وهذا ما سيتبين من خلال إبراز غايات وأهداف التربية في فكر ابن نبي.

المطلب الثاني: أهداف وغايات التربية عند مالك بن نبي

تتحدد أهداف التربية عند ابن نبي من خلال نظرته للمجتمع وتصوره للإنسان والحياة والكون. ومن هذا المنطلق، تعتبر التربية المرجوة عنده، تلك الكفيلة بتحويل واقع المجتمع من حالته السكونية المتخلفة إلى حالة حركية متطورة، ترتكز على استراتيجية تربوية للتغيير وإعادة البناء، من خلال تتبع طريقتين متكاملتين في عملية التجديد هما:[6]

- معرفة معوقات التغيير التي تتصل بالماضي: وهي مرحلة أولى في التجديد، تتطلب القيام بعملية تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، أي بطريقة سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي. وهذا ما أطلق عليه ابن نبي بالتجديد السلبي.

- إدراك عوامل التغيير (العوامل الحية الداعية إلى الحياة): وهي مرحلة تستوجب تطعيم الوسط الثقافي بأفكار فعالة تبعث فيه حياة جديدة، أي بطرقة إيجابية تصلنا بالحياة المستقبلية الكريمة. وهذا ما يسمى عند ابن نبي بالتجديد الايجابي. وليس المقصود منه وضع منهاج جديد للتفكير، وإنما المقصود هو تجديد محتواه من العناصر الجوهرية الأربعة التي عدها ابن نبي "مبادئ كفيلة بجمع شروط الفعالية التي لا تكتمل ثقافة الإنسان إلا بتحققها"[7]، والتي ينبغي أن تشكل برنامجا تربويا كفيلا بتغيير الانسان على المستوى النفسي والاجتماعي والانساني[8] وتشمل:[9]

- عنصر الأخلاق لتكوين العلاقات الاجتماعية.
- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.
- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمعّ أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون.

وبناء على ذكر، يتضح أن الغاية المحورية من التربية هي" وضع نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة"[10]، لأن بناء المجتمع المتحضر عند ابن نبي يستوجب العناية بالتربية من أجل توجيه الإنسان نحو أسباب التحضر، وإحداث ذلك التغيير الايجابي في

سلوكه، بعد تصفية محيطه الاجتماعي من جميع مظاهر التخلف، وتجريده من الأفكار الميتة " التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافية بعد أن فقدت جذورها، وانحرفت عن أصولها ومثلها العليا"[11]، في افق تنمية ملكاته وحشد طاقاته، بما يمكنه من الاسهام الفعال في تحقيق حاجات الحاضر ومواجهة تحديات المستقبل، لتجاوز ظاهرة الأفول وإشاعة روح التغيير والإصلاح.

المطلب الثالث: المجالات المستهدفة في العملية التربوية عند مالك بن نبي

فرق ابن نبي بين التربية والتعليم في موقفهما الاجتماعي إزاء مشكلة معينة؛ فالعلم عنده يمثل جانبا واحدا من جوانب برنامجه التربوي، وهو جانب التخصص الذي يعنى بإعداد الكوادر الفنية. أما التربية فهي أعم وأشمل مادامت تعنى بمسألة التثقيف التي لا تهدف فقط إلى تنمية الجانب العقلي أو المعرفي أو جانب القدرة أو المهارة لدى الفرد. بل وأيضا إلى تهذيبه أخلاقيا وتنمية ذوقه الجمالي، وإلى اكتسابه للخبرة. وهو ما يترتب عنه تغيير في سلوكات الفرد يكون مصاحبا لنمو جوانب شخصيته المختلفة، ويظهر هذا التغيير في تكيفه نفسيا واجتماعيا.[12] يقول ابن نبي:" إن الفرد يأتي إلى هذه الدنيا في حالته الفطرية البدائية ثم يتولى المجتمع تشكيله، ليكيفه طبقا لأهدافه الخاصة، تكييفا يجعل الفرد أهلا لأن يتخذ مكانه، ولأن يقوم بدوره في المجتمع"[13]

وهنا يتجلى دور التربية من حيث مجالاتها المستهدفة، ويمكن التي يراها ابن نبي كفيلة بإحداث التغيير وصناعة الانسان، إذا ما تمت مراعاتها في أي برنامج تربوي، وتشمل:

1- التربية الأخلاقية:

وتهدف إلى تشكيل وبناء "عالم الأشخاص" الذي يتسنى من خلاله تشكيل "عالم الأفكار" و "عالم الأشياء" عن طريق عمليات التهذيب والتوجيه. وهذا منهج النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: (إنما بعثت لأتمم صالحي الأخلاق)[14]. ولتحقيق هذا الهدف، يركز ابن نبي على عملية تكييف الانسان المسلم اجتماعيا بطريقة تجعل من كل تصرفاته وانعكاساته تتوافق مع النزعة الاجتماعية ولا تتعارض معها، وذلك من خلال إحياء سلطة الضمير عند هذا الانسان التي يعكسها التزامه الأخلاقي وسلوكاته المسؤولة.

ويرى ابن نبي أن هذه الروح الخلقية في الاسلام – ويقصد الاسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا، والمنبعث في صورة اسلام اجتماعي- [15] هي التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع اسلامي، وكان لها الفضل في إقامة علاقات اجتماعية بين الأفراد وفق منهج اجتماعي رصين[16] جسده قول الله تعالى: «وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم» الأنفال:8.

وعلى هذا الأساس تحتل القيم الأخلاقية مركزا محوريا في توجيه العملية التربوية، حيث يعتبرها ابن نبي "أولى المقومات في الخطة التربوية لأية ثقافة "[17]، لأنها تساهم في المحافظة على التراث القيمي ونقله من جيل إلى آخر، كما تلعب دورا مهما في قيام المجتمعات وتطويرها، "ففعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بمقدار ما يزيد فيها تأثير الأخلاق أو ينقص، لأن الأخلاق شرط أساس في تنظيم علاقات الأشخاص تنظيما يناسب المصلحة العامة"[18]، محصنة الفرد من طغيان النزعة المادية التي تحول سلوكه إلى ذلك الفرد البراغماتي الذي لا تعرف للفضيلة والمصلحة العامة معنى.

2- التربية الجمالية:

وتهدف إلى غرس الحس الجمالي، وتكوين الذوق العام للمجتمع، وذلك بتربية النفس على استنكار القبيح من الأفعال والأقوال، مقابل استحسان كل جميل والسعي في طلبه. فالجانب الجمالي وتذوقه وتربيته أمر ضروري لحياة الانسان على هذه الأرض، "فإذا كان المبدأ

الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته"[19]، لأنه يسمو به فوق حيوانيته، ويجعله يعيش وسط إنسانيته حسن الذوق والتذوق. وقد أكد ديننا الاسلامي على هذا النوع من التربية في قوله تعالى: "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد" [الأعراف: 31]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال)[20].

"فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل وتوخيا للكريم من العادات. ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية كبيرة، إذا ما عددناه المنبع الذي تصدر عنه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع"[21].

3- تكوين المنطق العملي:

يعتبر ابن نبي المنطق العملي هدفا تربويا ومعيارا تحدد به فعالية الأفكار وصلاحيتها. فصلاحية الأفكار لا ترتبط بصحتها المنطقية لأنها لا تعدو أن تكون فكرة مجردة حبيسة العقل، بل تقاس صحتها بمدى فعاليتها وتجسيدها في الواقع. لقد أصبحنا "نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من اللافعالية، لأننا نفتقد إلى ذلك الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء ومقاصدها...، ولقد يقال إن المجتمع الاسلامي يعيش طبقا لمبادئ الاسلام، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول: إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه"[22].

وانطلاقا من هذا كله، يؤكد ابن نبي على " أن الذي ينقص المسلم اليوم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة. فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا. بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا، ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط"[23].

إن تكوين المنطق العملي يهدف إلى تكريس البعد العملي للمعرفة، وتعليم الأفراد ربط العمل بوسائله ومقاصده، مع القدرة على استخدام الامكانيات وحسن توظيفها، من أجل تطبيع الانسان المسلم على الفعالية، وتحويل الأفكار إلى إنجازات، لأن فعالية الأداء التربوي لا تتلخص في حشو الأذهان بالمعارف بل في إقدارها على توظيفها في الواقع وحسن استثمارها، فليس المراد " أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، إنما أن نعيد لهذه العقيدة فعاليتها وقوتها الإيجابية"[24] لتتجسد في سلوكاته أخلاقا وعملا.

4- التوجيه الفني أو الصناعة:

ويشمل هذا الهدف التربوي "كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم"[25]. أي كل ما يرتبط بالجانب المادي لحياة الانسان (عالم الأشياء). فإذا كانت الحرفة أو الصناعة " وسيلة الفرد في كسب عيشه وبناء مجده، فهي وسيلة المجتمع في المحافظة على كيانه واستمرار نموه وتطوره. وعليه فيجب أن نلاحظ في كل فن هذين الاعتبارين"[26]. ولتحقيق هذا الهدف، يدعو ابن نبي إلى ضرورة إنشاء مجلس للتوجيه الفني ليحل نظريا وعمليا مشكلة التربية المهنية تبعا لحاجيات كل بلد، "فالتوجيه – حسب اعتقاده– يجنب الاسراف في الجهد والوقت. إذ هناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة صالحة لأن تستخدم في أحسن الظروف الزمنية والانتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وحين يتحرك هذا الجهاز سيحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود"[27].

5- التربية الاجتماعية:

إذا كانت التربية هي إعداد الفرد وتشكيل مهاراته وقيمه واتجاهاته، بما ينسجم وحاجيات البناء، فهي في ذات الوقت تربية للمجتمع. لذلك يرى ابن نبي أن التربية الاجتماعية لا بد أن تنطلق من ضبط وتنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية بما ينتج الانخراط في النشاط

المشترك، ويكسب المجتمع وظيفته في تجميع الطاقات الفردية لمصلحته في تحقيق النافعية، لأن الهدف هو تحويل الصفات النوعية الخاصة بالفرد إلى صفات اجتماعية تحدد معالم الشخص، بمعنى تغيير طاقته الحيوية إلى طاقة اجتماعية [28]. وقد ضرب ابن نبي مثالا رائعا لذلك عندما قدم الصحابة رضوان الله عنهم جزءا من أموالهم عن طيب خاطر للتأهب لغزوة بدر، وهو مثال يجلي كيف "تحولت الطاقة الحيوية في صورة غريزة التملك المطبوعة في الانسان إلى طاقة محكومة ومنظمة موجهة نحو المهام الاجتماعية"[29].

إن الهدف المنشود من التربية أن يتعلم الانسان كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية، في تنظيم الحياة الانسانية التي لا تستطيع الاستمرار من دونها لا أخلاقيا ولا ماديا. فكل فكرة عن التربية الاجتماعية – من وجهة نظر ابن نبي– يجب أن تتحدد في تكوين الفرد وعلاقاته الاجتماعية. "وحتى نتمكن من بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكارا جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية"[30]، وتوجه الفرد نحو تملك الكفايات التي تساعده على الاندماج في المجتمع والتكيف معه.

المطلب الرابع: أسس النظرية التربوية عند مالك بن نبي

1- بناء الإنسان:

يعتبر ابن نبي الإنسان الدعامة الأساس في إحداث النقلة الحضارية، ومصدر نجاح أي مشروع بشري، إلى درجة اعتباره الأداة والهدف في آن واحد، لأن جميع القضايا الكبرى التي يشهدها المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا تتصل في جوهرها بالإنسان. لذلك عده مفهوما مركزيا في معادلته التي تشمل المكونات الثلاثة لبناء الحضارة (ناتج حضارة = انسان + تراب + وقت)[31]، حيث يقول "يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[32]. ولهذا فهو يؤكد أن " الإنسان هو الجهاز الاجتماعي الأول، فإذا تحرك الإنسان تحرك معه المجتمع والتاريخ؛ وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ"[33]، فحالة الأفول الحضاري الذي تشهده الأمة سببه انحلال الفرد قبل انحلال المجتمع، وهو ما يؤكده الحق تعالى في قوله: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" [الرعد 11]، لأن الفرد هو حامل الرسالة والقيم والروح، ومحرك الوسائل ومستخدم الإمكانيات.

وعلى هذا الأساس؛ فإن إعادة تشكيل الإنسان المستقبلي الرسالي، هو منطلق تحريك دواليب عجلة التاريخ وإحداث الطفرة الحضارية، من خلال النموذج المستمد من التكليف الإلاهي، الذي حول الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن رسالي، قادر على توظيف قدراته وإمكاناته لصالح صناعة البناء الحضاري للأمة، وتحقيق مبدأ الاستخلاف في الارض، عملا بقوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة" [البقرة: 30].

2- بناء المجتمع:

ينطلق تصور ابن نبي في بناء المجتمع باعتباره تنظيما اجتماعيا، خاصيته الاستمرارية والتغيير في إطار ديناميكي يجمع بين الفرد والجماعة، ويحقق للإنسان التطور والنماء، لذلك نجده يختلف عن غيره في تصوراته عن نشأة المجتمع، حيث يعتبر أنه "ليس مجرد جمع لعناصر وأشخاص تدعوهم غريزة الجماعة إلى أن يتكتلوا في إطار اجتماعي معين. هذه الغريزة وسيلة لإنشاء مجتمع وليست سببا في إنشائه، إذ يضم المجتمع ما هو أكثر من مجرد مجموعة من الأفراد الذين يؤلفون صورته، يضم عددا من الثوابت التي يدين لها بدوامه وبتحديد شخصيته في صورة مستقلة تقريبا عن أفراده"[34]. كما يؤكد ابن نبي أن بناء المجتمع الحضاري لا يتأتى إلا من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية القادرة على توحيد الطاقات الفردية في صورة نشاط مشترك للمجتمع لتحقيق النافعية وليس النفعية، "لأن عجلة المجتمع تدور بفضل

شبكة علاقاته، وأن هذا النشاط هو الذي ينشأ عنه تغيير صورته"[35]، لكن النزوع نحو الفردية واستفحالها على النزعة الاجتماعية، ينعكس سلبا على الفاعلية والعمل المشترك الذي من شأنه أن يضمن للمجتمع استمراره والإبقاء على حركيته.

وفي غضون الحديث عن بناء المجتمع، ينطلق ابن نبي من فكرة محورية هي أن نهضة أي مجتمع تتم في نفس الظروف التي شهدت ميلاده. وعلى هذا الأساس، فإن إعادة بناء المجتمع المسلم الحديث، ينطلق من الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي وصمام أمان شبكة العلاقات الاجتماعية، حيث يقول "إن نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه. هذا القانون الذي عبر عنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)"[36].

3- الفكرة الدينية:

اعتبر ابن نبي الفكرة الدينية الوقود المحرك للبناء الحضاري ونقطة انطلاق لكل تغيير اجتماعي؛ " فكلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي، وجد سطورا من الفكرة الدينية"[37] ؛ فدورة الحضارة لا تتم إلا "حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، تظهر في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا "[38].

إن أهمية الفكرة الدينية في حياة المسلم الذي بعث فيه الدين روحا محركا للحضارة، ندركها من خلال تأمل حالة شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام. وهذا ما اشار إليه ابن نبي " ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي في صحراء مجذبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الانسان والتراب والوقت عوامل راكدة خامدة...لا تؤدي دورا في التاريخ، حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء- كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن نشأت في هذه العوامل الثلاثة المكدسة حضارة جديدة...ومن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده للتمدن والرقي"[39].

إن الفكرة الدينية هي التي تحدد الإطار الحضاري بمختلف أبعاده الثقافية والقيمية والاجتماعية والاقتصادية في بناء الانسان، وتكوين الفرد الحيوي الإيجابي والمجتمع المتماسك الموحد، بما تغرسه العقيدة من قيم جديدة، قادرة على تغيير سمت الانسان وضبط سلوكه، فهي " تمنحه الوعي بهدف معين، تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى. وهي حين تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه"[40].

ومن هذا المنطلق؛ يعتبر ابن نبي غياب الوازع الديني سببا مباشرا في سقوط المجتمعات، لأن البناء الاجتماعي "لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، لأن الروح والروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت...وأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الانسان تعطشه إلى الفهم، وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان"[41].

وإذا كانت " العقيدة الدينية هي فلسفة الحياة بالنسبة إلى الأمم التي تدين بها" [42]، فخصوصيتنا الدينية والثقافية، تفرض علينا تعزيز مناهجنا التعليمية بالخطاب الديني، وتجذيره قيما توجه سلوك الانسان وتنظمه، ومعارف ومهارات تعيد له فعاليته، ونوطن لديه مرجعيته الأصيلة عقيدة وفكرا وسلوكا، بما يضمن تحقيق التناغم بين الخطاب التربوي الذي يتلقاه، وبين الرؤية الكونية التي يحملها حول الوجود ودوره الاستخلافي فيه.

خاتمة:

إن استنطاق فكر مالك بن نبي واستقراء فلسفته التربوية يجلي امتلاكه لمشروع تربوي مجتمعي وانساني له أسسه وأهدافه، قوامه الفرد والمجتمع معا، كل منهما يعضد الآخر في عملية تأثير متبادل، تحفظ للمجتمع كيانه وتضمن استمراريته ومواكبته الفاعلة للتطورات.

كما أن مجهودات ابن نبي في التغيير ترمي إلى تقديم بديل ثقافي واجتماعي، يتمثل في خلق واقع اجتماعي من خلال إعادة تأهيل رأس المال البشري، الذي لا يتحقق إلا بالتربية التي لا يمكن أن تؤتي ثمارها – حسب رأيه– إلا إذا ارتبطت بالواقع. أما إذا كانت تعليما فلسفيا بعيدا عن الواقع فلن يكون لها أثر يذكر. هذه التربية التي لا يجب أن ترتكز على المؤسسات التعليمية أو الأسرة، بل هي ثقافة يجب أن يتمثلها الفرد والمجتمع على حد سواء، باعتبارها مفهوما شموليا يتجسد في جميع جوانب الحياة (من حيث الأخلاق والذوق الجمالي والسلوك والاقتصاد والسياسة....). كما أن هدفها لا يتوقف عند تحقيق التغيير وبناء الحضارة، وإنما يتعداه إلى البحث عن الآليات التي تحفظ هذا التغيير من التراجع والمجتمع من النكوص.

وعلى هذا الأساس، حاول ابن نبي إبراز أثر وقوة وفعالية الفكرة الدينية في صناعة الإنسان باني الحضارة، معللا أسباب التراجع الحضاري للأمة بغياب التربية الإيمانية الفاعلة في بناء الشخصية المسلمة، والانفصال القائم بين اعتقاد المسلم وبين واقعه السلوكي والعمراني، الشيء الذي نتج عنه غياب القيم الإسلامية في الواقع الاجتماعي للأمة.

الهوامش:

[1] – ابن نبي مالك، ميلاد مجتمع، دار الوطن، ط 2016، ص79.

[2] – المرجع نفسه، ص:108/107 بتصرف.

[3] – ابن نبي مالك، مشكلة الثقافة، دار الوطن، ط 2016، ص75.

[4] – المرجع نفسه، ص72

[5] – باي محمد بغداد. التربية والحضارة، عالم الفكر، بيروت 2006، ص217.

[6] – مشكلة الثقافة، ص70.

[7] – ابن نبي مالك، تأملات، دار الفكر، دمشق، ط 2002، ص152/151.

[8] – ميلاد مجتمع، ص 108/107 بتصرف.

[9] – ابن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 1986، ص 87،

[10] – مشكلة الثقافة، ص72،

[11] – ابن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ط 2002، ص 153 بتصرف.

[12] – التربية والحضارة، ص224.

[13] – ميلاد مجتمع، ص69/68.

[14] – أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، ج341/1 رقم 273.

[15] – مشكلة الثقافة، ص80.

[16] – المرجع نفسه، ص78–80 بتصرف.

[17] – مشكلة الثقافة، ص61.

[18] – تأملات، ص148.

[19] – المرجع نفسه، ص150.

[20] – صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ج12/2، حديث رقم 91.

[21] – مشكلة الثقافة، ص 81

[22] – مشكلة الثقافة، ص87.

[23] – شروط النهضة، ص96.

[24] – ابن نبي مالك، وجهة العالم الاسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 2002، ص 54.

[25] – شروط النهضة، ص97

[26] – شروط النهضة، ص97؛ مشكلة الثقافة، ص 88.

[27] – شروط النهضة، ص78؛ ومشكلة الثقافة، ص 65-66.

[28] – ميلاد مجتمع، ص 76-85-86 بتصرف.

[29] – المرجع نفسه، ص 117.

[30] – ميلاد مجتمع، ص82.

[31] – ميلاد مجتمع، ص29.

[32] – شروط النهضة، ص75

[33] – تأملات، ص129.

[34] – ميلاد مجتمع، ص10

[35] – ميلاد مجتمع، ص 79

[36] – المرجع نفسه، ص:80.

[37] – ابن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط2000، ص 69.

[38] – شروط النهضة، ص51 و70 بتصرف.

[39] – المرجع نفسه، ص 51.

[40] – شروط النهضة، ص72.

[41] – وجهة العالم الإسلامي، ص31.

[42] – العقاد عباس محمود، الفلسفة القرآنية، نهضة مصر، ط2، 2006، ص 5.